الافتتاحيَّة

الشيخ حسن أحمد الهادي[1]

لقد كثرت البحوثُ والدراساتُ في تحديد ماهيّة البنيويّة وجذورها واتِّجاهاتها ودوافعها، فاعتبر بعضُهم أنَّ البنيويَّة منهج أو أدواة واعتبر آخر أنّها نظريَّة أو...، والسبب في ذلك كثرة الاتّجاهات الفكريّة المتباينة بين أعلام البنيويّة أنفسهم (شتراوس، التوسير، فوكو، لاكان)؛ إذ عند التدقيق في أطروحاتهم نجد أنّه ليس ثمّة مذهب بنيويّ واحد يجمع بينهم. والشيء الوحيد الذي يجمع بينهم هو ذلك المشروع العلميّ الذي أرادوا تطبيقه على معرفتنا بالكون والإنسان، والمحاولات العلميَّة المنهجيَّة لدراسة الظواهر عمومًا، والظواهر البشريَّة خصوصًا؛ ولذلك تعدّدت تعاريف البنيويَّة ومسالكها بعدد المفكِّرين من أصحاب النظريَّات أو المدارس الذين تناولوها بالتأسيس أو النقد والتطوير والتطبيق أو الاتِّجاهات المعرفية التي عملت بها ونظَّرت لها.

هذا الواقع لا يعفينا من العودة إلى المنهج بما هو طريقة علميّة يتّخذها الباحث للوصول إلى النتائج المتوخّاة في العمليّة المعرفيّة، وهو مدار تقييم الآراء والنظريّات والحكم عليها بالصحّة أو الفساد. فالمنهج: «طائفةٌ من القواعد العامّة المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم»[2]. وإذا كان المنهج هو الطريق نحو الوصول إلى المعرفة، فالمنهجيّة هي (علم المنهج)، وهو «العلم الباحث في الطرق المستخدمة للوصول إلى الحقيقة»[3].

(1) رئيس التحرير
(2) بدوي، عبد الرحمن: مناهج البحث العلميّ، ط3، الكويت، وكالة المطبوعات، 1977م، ص3.
(3) م.ن، ص7.

وبالعودة إلى بيان مفهوم البنيويَّة -كما ورد في المعاجم اللغويّة وغيرها- نجد بأنّ كلمة «البنيوية» ترجمة مرادفة لكلمة «structure» الإنجليزيَّة، التي هي بدورها مشتقة من اللفظ اللاتينيّ«structura»، وأنَّ كلمة «structura» مشتقّة من الفعل «struere» بمعنى «البناء». واشتقّ لفظ البنيويَّة من البنية، إذ تقول إنّ كلّ ظاهرة إنسانيَّة كانت أم أدبيَّة تشكّل بنية، وبالتالي لدراسة هذه البنية يجب علينا أن نحلّلها، نفكّكها إلى عناصرها المؤلّفة منها، دون النظر إلى عوامل خارجيَّة عنها؛ ولهذا إنّ جميع الأبحاث والدراسات المتعلّقة بالمجتمع، مهما اختلفت تؤدّي إلى (بنى).

فقد شهد منتصف الستينات من القرن العشرين بداية انتشار الأعمال الأولى للبنيويَّة، وتعتبر أعمال (شتراوس) التي قدّمها في كتابه «الإناسة البنائية» 1957 وكتابه الآخر «الفكر البريء» 1963 في طليعة الأعمال التي تشكّل مؤشِّرًا بنيويًّا واضحًا، وذلك من خلال ما أنجزه من دراسات معمّقة في البنى العقليَّة، وشكّلت هذه الأعمال فاتحة عهد داعمة لتكريس النزوع البنيويّ باتجاه المجالات الأخرى كافَّة من أدب وفلسفة وعلم نفس...

وتُعدّ المدرسة البنيويَّة حركةً أدبيَّةً في المجالات الأكاديميَّة المختصّة بدراسة اللغة والثقافة والمجتمع، ويعتبر فرديناند دي سوسير من أوائل مَن أطلقوا البنيويَّة في النصف الثاني من القرن العشرين، فقد ظهرت فكرة البنيويَّة لأوّل مرة في القرن التاسع عشر، أمَّا مصطلح البنيويَّة فقد ذُكر لأوّل مرَّة في أعمال عالم الأنثروبولوجيا الفرنسيّ كلود ليفي شتراوس، ما أدّى إلى ظهورها في فرنسا وحفّز لاحقًا المفكّرين من أمثال ميشيل فوكو، ولويس ألتوسير، والمحلّل النفسي جاك لاكان، لإنتاج أعمال مبنيَّة على الحركة البنيويَّة.

والبنيويَّة بوصفها نظريَّة هي واحدة من النظريَّات الشائعة في العلوم الاجتماعيَّة، اتّسعت لاحقًا لتشمل علومًا إنسانيَّةً أخرى كعلم النفس،

والعلوم التربويَّة والاقتصاد والإدارة أيضًا، حتى أنّها دخلت إلى حقل العلوم الطبيعيَّة أيضًا. ولقد انطلقت البنيويَّة من المشروع الفلسفي الداعي إلى موت المؤلِّف؛ ولهذا تقوم البنيويَّة على عزل النصّ عن المجتمع وعن التاريخ، وعن الإنسان والحضارة والثقافة.

تتعامل البنيويَّة مع النصّ على أنّه مادَّة معزولة ذات وحدة عضويَّة مستقلّة، وأنّه (أيْ النصّ) معزول عن سياقه وعن الذات القارئة. وقد صرّح أكثر من واحد من البنيويِّين ومن تبعهم بحقيقة قطع الصلّة بين المؤلِّف والنصّ الأدبيّ، حيث تتكلّم فيه اللغة وليس المؤلِّف، يقول "رولان بارت": "النصّ بحاجة إلى ظلّه، وهذا الظلّ القليل من الأيديولوجيا"[1].

وعلى هذا الأساس ستكون «البنية سيّدة العلم والفلسفة رقم واحد، بلا منازع ابتداءً من سنة 1966، وقد كان الفلاسفة لا يتحدّثون إلَّا عن الوجود -الذات- الإنسان والتاريخ، في حين أصبحوا الآن لا يكادون يتحدَّثون إلَّا عن البنية أو النسق أو النظام. ولقد جاء فلاسفة البنيويَّة في هذا العصر لكي يعلنوا موت الإنسان»[2]، وكأنَّ البنية هي الوحيدة التي تضمن للعقل فهم الواقع، فقد أعلن البنيويُّون صراحةً موت المؤلّف، بعد أن كان هو الفاعل المسيّطر على المادّة، أصبح مفعولًا به مسيّرًا لها، لا يملك أمامها لا حول ولا قوّة.

ويمكننا أن نتلمّس بوضوح مفهوم القطيعة بين النصّ والمكوّنات الواقعيَّة عندما نتحدّث عن مستويات النقد البنيويّ الأدبيّ، وقد بدأ التفكير بإمكانيّة تحقيق هذه القطيعة مع صدور كتاب «رومان انجادرن» الذي يتحدّث عن العمل الفنيّ الأدبيّ، حيث تضمّنت أعماله إشارة إلى استقلال البنية أو النصّ الأدبيّ عن الواقع إلى درجة القطيعة مع هذه

(1) بارت، رولان: لذَّة النصّ، ترجمة: فؤاد صفا، لا ط، الدار البيضاء المغرب، دار توبقال للنشر والدراسات، 1988م، ص37.

(2) إبراهيم، زكريا: مشكلة البنية أو أضواء على البنيويَّة، لا ط، مصر، مكتبة مصر، لا ت، ص27.

المكوّنات الواقعيَّة، وخصوصًا القطيعة مع المؤثّرات النفسيَّة والأفكار المثاليَّة والاهتمام فقط بالجسم اللغويّ للعمل الأدبيّ»[1].

وفي سياق تزاحم الأفكار يطرح سؤال مفاده: هل البنيويَّة أيديولوجيا؟ أرادت الهروب من الواقع، وجاءت بوصفها ردّ فعل على الفلسفات التي بالغت كثيرًا في تحميل النصّ ما لا يحتمل من أيديولوجيَّات ورسائل اجتماعيَّة وفكريَّة وسياسيَّة... الخ؟! هذا ما يحتاج إلى بحثٍ في سياق الوصف والنقد...

وفي تقويمه لحصاد الحركة البنيويَّة في النقد الأدبيّ يقول الناقد الإنجليزيّ «تيري إيجلتون» الأستاذ بجامعة أكسفورد: «في اللحظة التي وضعت فيها البنيويَّة الموضوع الواقعيّ بين أقواس، وضعت أيضًا الذات الإنسانيَّة بين أقواس. يمكن القول إنّ هذه الحركة المزدوجة تمثّل طبيعة المشروع البنيويّ. فالعمل الأدبيّ لا يحيل إلى موضوعٍ ما، كما أنّه ليس تعبيرًا عن ذات الفرد، وما تبقّى نظام من قوانين معلّقٍ في الهواء، والقول إنّ للبنيوية مشكلة مع الذات هو قول ملطّف، فالذات تمّت تصفيتها فعلًا، وجرى اختزالها في وظيفة، أو قل إنّ الذات الجديدة هي النظام ذاته وقد أعزيت إليه كلّ خصائص الفرد التقليديَّة، مثل الاستقلاليَّة والوحدة والتنظيم الذاتيَّ وغيرها. إنَّ البنيويَّة ضدّ الإنسانويَّة، ليس بمعنى أنَّ أنصارها يخطفون من الأطفال حلواهم، ولكن بمعنى أنَّهم يرفضون الأسطورة القائلة إنَّ المعنى يبدأ وينتهي بخبرة الفرد»[2].

وخلاصة ما يمكن توجيهه إلى البنيويَّة أنّ:

- البنيويَّة رفعت شعار النصّ ولا شيء غير النصّ، ما يعني فصل النصّ عن مؤثرّاته؛ المؤلّف، الكاتب، الإنسان، التاريخ ... علمًا أنّ مقولة

(1) فضل، صلاح: مناهج النقد المعاصر، ط1، القاهرة، دار الأفاق العربيَّة، 1997م، ص319.
(2) مقدّمة في النظريَّة الأدبيَّة، مترجم عن الطبعة الإنجليزيَّة، ص98.

«موت المؤلّف» تنحو نحو نفي أن يكون النصّ صادرًا عن المؤلِّف، أو أنَّه تعبير عن تجربة المؤلّف وخبرته في الحياة، والنتيجة هي نفي الذات المبدعة وأصالة المبدع. ولا شك في أنّ هذا كلام غريب وصادم، هذا الفكر الذي أمات كلَّ شيء (الإنسان، العاطفة، المشاعر، والثقافة) وأمات حتَّى الحياة، ولكن هذا ما يدعو إليه رولان بارت صراحة في مقالته «موت المؤلّف».

- البنيويَّة أرادت أن تعبّر عن النصّ بلغة اللغة، لا بلغة الإنسان، وهذا ما ساعد على إسقاطها، والتشكيك في تطبيقاتها ونتائجها.
- البنيويَّة بوصفها فكرًا ونهجًا تعتبر وافدًا غريبًا على فكرنا وأصالتنا وثقافتنا، وبالتالي من المحال تقبّلها وزرعها في تربة ثقافيَّة عربيَّة.

والخلاصة: إنَّ هذه النظرة العدميَّة للعمليَّة الإبداعيَّة ما هي إلَّا جزء من نزعةٍ شاملةٍ تُقصي ذات الفرد عن مركز الوجود الإنسانيّ، وتنكر أيّ دورٍ فاعلٍ لها في التاريخ وتحلّ اللغة مكانها، بحيث تصبح الذات هي نتاج اللغة وليست اللغة هي نتاج الذات، ويتحوّل العالم وكلّ شيء إلى نصّ.

والحمدلله رب العالمين